خـيـر عـالم خـلا
كـان فـينا ينتـمي

عاش مصطفى صادق الرافعي مكافحا في سبيل إسعاد أسرته وبنيه، لأن بيئته لم تساعده على ذلك، بالمقدار الذي يناسب نبوغه وفضله . وعاش مكافحا في سبيل الأدب نفسه، فكان مؤلفا عالما، وكان شاعرا من طبقة عالية، وكان بعد ذلك أكتب كتاب العربية، لا يعلو على نثره نثر، ولا يبلغ أحد شأوه في دقة التعبير وابتكار جليل المعاني من أتفه الأشياء وأبسطها .

ومصطفى صادق الرافعي هو صاحب كل قول يقوله، وإن شانئيه من أدعياء التجديد - الذين يسطون على معاني أدباء الإفرنج فيمسخونها بأساليبهم العامية الضعيفة - لو أن الله سلط عليهم من يرد كل معنى في نثرهم وشعرهم إلى أصحابه من فرنسيس وإنكليز، لانطلقت معانيهم كلها إلى أوكارها البعيدة ، ولبقيت أساليبهم العامية الضعيفة خلوا من كل شيء.

والذي سينتفع به مصطفى صادق الرافعي في موقفه غدا بين يدي ربه المعارك التي خاضها تحت راية القرآن دفاعا عن البنيان المحمدي الخالد وتنكيلا بالذين حدثتهم أنفسهم أن يعملوا على هدمه . وجهاد الرافعي في هذا الميدان كان جديرا بسليل بيت الفاروق . وأحب بهذه المناسبة أن أذكر له مزية عرفتها فيه غير مرة، وهي عزوفه عن الاعتزاز بالنسب وحرصه على أن يعرفه الناس جنديا من جنود الإسلام وأن يقدروه بما يرونه من قيمة جهاده .

إن الدفاع عن الفضائل، وعن الحرية، وعن حقائق الإسلام، كان سليقة في الرافعي يجري بذلك قلمه بغير تعمل ولا قصد، فكان هو بذلك شجى في حلاقيم مبغضي محمد ﷺ، وقد حاولوا كثيرا أن يضعوا من شأنه، وأن يحطوا من قدر أدبه، فلم يزيدوه إلا حرمة في نفوس الناس وإجلالا . وقلما حظي نثر معاصر باستظهار الناس له، وحفظهم بدائعه، كما رأينا المتذوقين حلاوة البيان العربي يحفظون آيات هذا النابغة وشواهد عبقريته ونبوغه.

رحمه الله رحمة واسعة، وأكثر في الأمة من خلفائه.

ذكرى الرافعي*

لم ألق في الأدباء مثلك مصطفى
تحكي براعتُه الحسام المرهفا

تحمي حمى أم اللغات بجده
وتذود عنها من بغا وتعسفا

قول كآيات الكتاب تنزلت
قد جل حسن بيانه أن يوصفا

كالصبح نورا والنسائم رقة
والدّرِ نظما والربيعِ مفَوفا

ألقى البيان قياده لك تنتقي
منه - كما شئت - الأرقَّ الألطفا

* * *

يا ناصر الفصحى بقولك لم تكن
متصنعا فيه ولا متكلفا

أعليت بالأدب الرفيع لواءها
فهفا على العرب الكرام ورفرفا

وأعدته شعبا قويا بعدما
قد كان أوهى ما يكون وأضعفا

فلتبقَ ذكراك الكريمة بيننا
فهي الأحق بيومها أن يحتفى

شعر: عبدالرحمن نجا

* مجلة الأزهر ، العدد الأول ، يونيو ، ١٩٦٣م.